

النظام العالمي القديم يقترب من نهايته - نظام عالمي جديد يتشكل

يُعدّ خيانة غزة واحدة من أعمق الإخفاقات الأخلاقية في أوائل القرن الحادي والعشرين — تخلّ بطيء الحركة مزقّ وعد “لن يتكرر أبداً” الذي وُلد بعد الهولوكوست، وكشف هشاشة القانون الدولي عند مواجهته للقوة الخام والمصلحة السياسية. على مدى 29 شهراً، ابتداءً من أكتوبر 2023، شاهد العالم غزة تتعرض لدمار لا يرحم: منازل تحولت إلى أنقاض، مستشفيات مستهدفة، أطفال يتضورون جوعاً، عائلات بأكملها محيت. الصور كانت لا مفر منها — رضع يتضورون جوعاً، مبتورو الأطراف دون تخدير، مقابر جماعية تحفر باليد — ومع ذلك، كان رد الفعل من أولئك الذين يدعون حراسة المعايير العالمية، في أحسن الأحوال، خطاباً عاجزاً، وفي أسوأها، تواطؤاً نشطاً من خلال الفيتو، شحنات الأسلحة، والغطاء الدبلوماسي.

وُلد وعد “لن يتكرر أبداً” من رماد أوشفيتز وتريبلينكا، نذر محفور في ضمير الإنسانية بعد القتل الصناعي لستة ملايين يهودي وملايين آخرين. أصبح الركيزة الأخلاقية للنظام ما بعد 1945: اتفاقية الإبادة الجماعية عام 1948، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، مبادئ نورمبرغ التي أعلنت أن الجرائم ضد الإنسانية تتجاوز الحدود والسيادة. ومع ذلك، في غزة، انكسر ذلك الوعد. وصف خبراء الأمم المتحدة، بما في ذلك المقرر الخاص بحالة حقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية، أنماطاً تتفق مع الإبادة الجماعية — قتل أعضاء الجماعة، إلحاق أذى جسدي أو عقلي خطير، تعمد إلحاق ظروف محسوبة لإحداث تدمير جسدي. وجدت اللجنة الدولية المستقلة للتحقيق مسؤولية السلطات الإسرائيلية عن جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، بما في ذلك التجويع كوسيلة حرب، الإبادة، الاضطهاد الجنسي، والنقل القسري. وفي تدابير مؤقتة أصدرتها محكمة العدل الدولية (ICJ) في يناير 2024، وجدت أنه من المحتمل وقوع أفعال محظورة بموجب اتفاقية الإبادة الجماعية، وأمرت إسرائيل بمنع مثل هذه الأفعال، وضمان توصيل المساعدات، ومعاقبة التحريض. عززت الأوامر اللاحقة والآراء الاستشارية الالتزامات بتسهيل الوصول الإنساني، بما في ذلك لوكالة الأونروا، وأعلنت جوانب من الاحتلال غير قانونية.

لم تكن هذه مجرد هوامش قانونية غامضة؛ بل كانت إعلانات ملزمة من أعلى محكمة في العالم وهيئات الأمم المتحدة الموثوقة. ومع ذلك، كان الامتثال ضئيلاً. قيدت إسرائيل المساعدات أو منعتها — واجهت الأونروا تعليقات، معابر مغلقة لأشهر، ممرات إنسانية عسكرية أو خصصتها إلى فوضى قاتلة. بحلول 2025-2026، عادت ظروف المجاعة، مع تخفيض الحصص إلى كسور من الاحتياجات الحرارية، عرقلة الأطراف الاصطناعية لآلاف المبتورين، وإيقاف الإجراء الطبي. أكثر من 70,000 فلسطيني قتلوا (من المحتمل أكثر بكثير عند احتساب الوفيات غير المباشرة من الأمراض والجوع ونقص الرعاية)، واحد من كل خمسة أطفال في العالم يعيشون في مناطق نزاع مع غزة مركز المعاناة. كان العالم يعلم — صور الأقمار الصناعية في الوقت الفعلي، تقارير الصحفيين، تقارير المنظمات غير الحكومية — ومع ذلك، توقفت آلة المساءلة.

كان تخلي المجتمع الدولي مؤسسياً. عجز مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، مشلولاً بفيتو أمريكي متكرر، عن فرض وقف إطلاق نار أو فترات إنسانية. تم عرقلة قرارات تطالب بوقف فوري للأعمال العدائية، وصول مساعدات غير مشروط، وإطلاق سراح الرهائن — غالباً الصوت المعارض الوحيد من واشنطن — رغم الدعم شبه الشامل من الأعضاء الآخرين. اقترحت “فترات إنسانية” وفيتو عليها؛ تجاهلت دعوات الامتثال لأوامر محكمة العدل الدولية. واصلت الولايات المتحدة، أقوى حلفاء إسرائيل، تقديم المساعدات العسكرية بينما تدين الخسائر المدنية بلغة محتشمة بعناية، تصوّر النزاع كدفاع عن النفس ضد

حماس مع تجنب الحصار والاحتلال الأوسع. أصدر الحلفاء في أوروبا وغيرها بيانات قلق لكن نادراً ما ترجمت إلى ضغط ملموس — عقوبات مؤجلة، تصدير أسلحة مستمر، اعتراف دبلوماسي سليم.

لم يكن هذا مجرد تقاعس؛ بل كان عمىً انتقائياً. استُدعي وعد “لن يتكرر أبداً” بشكل انتقائي لعقود — بحق للهولوكوست، لبوسنة، لرواندا بعد فوات الأوان — لكن في غزة، تغيرت الحسابات. تغلبت التحالفات السياسية، نفوذ اللوبي، والمصالح الاستراتيجية على المبادئ العالمية. النتيجة: شعب محصور في سجن مفتوح، يتعرض للقصف والحصار، بينما النظام العالمي الذي يدعي منع مثل هذه الفظائع ينظر بعيداً أو يمكّنها. تعمقت الخيانة مع كل فيتو، كل قافلة متأخرة، كل بيان “أفكار وصلوات” من عواصم كان بإمكانها الفعل لكنها اختارت عدمه.

دائماً ما يفرض الغرور ثمناً. افترض مهندسو هذا النظام — الذين بنوا مؤسسات على رماد الحرب العالمية الثانية لمنع التكرار — أن السلطة الأخلاقية ذاتية الاستدامة، وأن القوة يمكنها تجاوز القانون والضمير إلى الأبد دون عواقب. كانوا مخطئين. الإمبراطوريات التي ترتفع تسقط، غالباً ليس بهزيمة ميدانية بل بتآكل الشرعية. عندما يصبح وعد “لن يتكرر أبداً” شعاراً بدلاً من أخلاق ملزمة، وعندما يُطبق القانون الدولي بشكل انتقائي، وعندما تُعتبر معاناة شعب ما مقبولة لمصلحة جيوسياسية، تُزرع بذور الدمار.

الآن يأتي الفاتورة، وتأتي بقوة لا تُقاوم كما تنبأ بها فرانك هيرت في روايته **الكتبان** — ملحمة تربط السلطة، السيطرة على الموارد، والدورات الحتمية للصعود والسقوط بطرق تبدو نبوية أكثر منها خيالية. ثلاث استعارات من عالم **الكتبان** تُوظف الزلزال الجيوسياسي الحالي بدقة مخيفة.

أولاً، الاقتباس من الأميرة إيrolan في **أبناء الكتبان**: “إذا علم التاريخ شيئاً، فهو ببساطة هذا: كل ثورة تحمل في داخلها بذور دمارها الخاص. والإمبراطوريات التي ترتفع، ستسقط يوماً ما.” يتردد هذا التحذير الهادئ خلال أحداث مارس 2026. الولايات المتحدة، مهندسة ومنفذة النظام ما بعد الحرب العالمية الثانية المبني على الإسقاط العسكري غير المشروط، هيمنة الدولار، والسلطة الأخلاقية الانتقائية، تواجه الآن الجروح الذاتية الناجمة عن تجاوزها. ما بدأ كرفض أخلاقي للإفلات من العقاب في غزة تحول إلى تحدٍّ هيكلية: إصرار الإمبراطورية على الدعم المطلق لإسرائيل، حتى وسط الفظائع الموثقة، زرع الاستياء في الجنوب العالمي وشق التحالفات الأقرب إلى الوطن. كل تصعيد — ضربات استهداف قيادات خلال هدن هشة، تحويل أنظمة دفاعية من أوكرانيا والمحيط الهادئ — يزرع بذور رد فعل أعمق. اغتيال المرشد الأعلى علي خامنئي في 28 فبراير 2026، وسط مفاوضات مستمرة، حطم أي ثقة دبلوماسية متبقية. ابنه مجتبي خامنئي، الذي تصلب بسبب الخسائر الشخصية والعائلية، تعهد بالانتقام والمقاومة المستمرة، رافضاً الهدن دون تصحيح نظامي لفلسطين. التاريخ، كما تذكرنا إيrolan، لا يسمح بالصعود الدائم؛ الآليات نفسها التي رفعت الولايات المتحدة إلى وضع القوة العظمى تكشف الآن نقاط الضعف عند مواجهة مقاومة غير متكافئة مصممة.

ثانياً، السطر الشهير المنسوب إلى البارون فلاديمير هاركونن: “من يسيطر على التوابل، يسيطر على الكون.” في كون هيرت، التوابل (الملانج) — التوابل المضادة للشيخوخة — هي محور الحضارة بين النجوم: تمدد الحياة، توسع الوعي، وتمكن ملاحى النقابة من طي الفضاء. لذا تساوي السيطرة على أراكيس السيطرة على كل شيء. في تشبيهاً، يلعب النفط (وبدرجة أقل الغاز الطبيعي المسال) دور التوابل. لعقود، سيطرت الولايات المتحدة على التدفقات — ليس دائماً بامتلاك الاحتياطيّات مباشرة، بل من خلال التفوق البحري الذي يؤمن الممرات البحرية، التحالفات التي تضمن المنتجين الصديقين، ونظام البترودولار الذي يضمن الطلب على الدولار. مضيق هرمز، الذي كان يمر من خلاله نحو 20 في المئة من النفط العالمي يومياً، أصبح نقطة الاختناق الحديثة لأراكيس. إغلاق إيران الفعال — أو التقييد الشديد — للمضيق، مدعوماً بتهديدات الصواريخ، الألغام، وإلغاء التأمين، قلب ذلك السيطرة. انهيار حركة المرور إلى قطرات؛ قلص منتجو الخليج الإنتاج مع امتلاء التخزين؛

محاولات إعادة التوجيه عبر باب المنذب تواجه تهديدات حوثية جديدة. يرتجف البترودولار نفسه مع تجارب إيران في المرور باليوان أو الروبل للبضائع المتحالفة. يكتشف مهندسو النظام القديم — واشنطن وحلفاؤها الأقرب — فجأة أن السيطرة الاسمية لا تعني شيئاً عندما يمكن مقاطعة التدفق نفسه.

ومع ذلك، تأتي الرؤية الأعمق من ملاحظة أدق في مسلسل **أبناء الكتبان** (يردد مواضع هربرت): “ليس من يسيطر على التوابل، بل من لديه القدرة على تعطيل التوابل.” يلخص هذا الانقلاب جوهر اللحظة الحالية. قد تتباهى الولايات المتحدة بعدد أكبر من السفن، أحدث الطائرات، أعمق الاحتياطات الاستراتيجية، لكن إيران — بدعم غير مباشر من الاستخبارات الروسية، التحوط الاقتصادي الصيني، وشبكة وكلاء — أظهرت أن القوة العليا تكمن في التعطيل. من خلال استمرار وابل الصواريخ، خنق هرمز، وتهديد نقاط الاختناق الثانوية، تفرض طهران تكاليف يصعب على الإمبراطورية مطابقتها بشكل مستدام. تحرق الذخائر الأمريكية سنوات من الاحتياطي في أسابيع؛ يُحول الاعتراضات من مسارح أخرى؛ يعيد الحلفاء تقييم اتفاقيات القواعد بهدوء مع تعرض المواقع المحمية أمريكياً لنيران لا يمكنهم صدها بالكامل. الحاملات، التي كانت رموزاً للإسقاط غير المشروط، تعمل الآن تحت تهديد دائم في عالم السرعات الفائقة والطائرات بدون طيار السريعة. تم استدعاء الخدعة: القوة التقليدية الساحقة تتعثر أمام الاستعداد لتحمل الألم وفرض الاستنزاف غير المتكافئ.

الغضب الذي أشعل هذا الحساب — الاستعداد للترحيب بالانهيار النظامي إذا أنهى الإفلات من العقاب — يعكس حقيقة أعمق: عندما يلتقي الإرهاب الأخلاقي بالتمدد المادي الزائد، يتسارع السقوط. فشل الجمهور العادي في الغرب، المخدر أو المشنت بصور المعاناة الوسيطة، في إيقاف الآلة من خلال إضرابات عامة أو سحب جماعي للقبول. الآن يصل الألم بشكل ملموس عند المضخة وفي المحفظة. إصدار وكالة الطاقة الدولية القياسي 400 مليون برميل (11 مارس 2026) — الأكبر في التاريخ — يشترى أسابيع، ربما أشهراً، لكن الاستنزاف يلوح بحلول أواخر يونيو إذا استمرت التعطيلات. ترتفع أسعار النفط نحو 100 دولار+ للبرميل (مع سيناريوهات أسوأ تتنبأ بـ 135-200 دولار)؛ ترتفع معايير الغاز الأوروبية مثل TTF؛ تصبح معادلات الوقود قريبة من 20 يورو للتر في الأسواق ذات الضرائب العالية ممكنة. هذا الصدمة في الجيب — أكثر فورية بكثير من الفظائع البعيدة — يشعل المظاهرات الجماهيرية، الإضرابات العامة، والثورات الانتخابية التي غابت طويلاً.

تقف أوروبا، خاصة ألمانيا، في مركز الضعف. إن انتقال الطاقة الألماني (Energiewende) — التخلي التدريجي من النووي وتسريع تقليل الفحم — ضيق الخيارات إلى الغاز المستورد والمتجددات المتقطعة، مما جعل أسعار الكهرباء رهينة لتقلبات الوقود الأحفوري العالمية. تخفف فرنسا من تأثيرها بقاعدة نووية؛ تحتفظ بولندا وإسبانيا بالفحم أو فصل شمسي قوي؛ تستمد الولايات المتحدة والصين وروسيا واليابان من مصادر داخلية متنوعة. تواجه ألمانيا، مع ذلك، ألماً صناعياً حاداً، ضغطاً مالياً، وتآكلاً سياسياً. يتمسك ائتلاف المستشار ميرتز بالتقشف المالي والالتزامات غير المشروطة — بدعم أوكرانيا، عقوبات روسيا، دعم إسرائيل غير المشروط — بينما تتذمر الولايات الجنوبية (أيرلندا، إسبانيا، إيطاليا) من النفاق الأخلاقي بشأن غزة، وتدفع المجر وسلوفاكيا نحو واقعية طاقة براغماتية بتخفيف قيود الاستيراد الروسي. يضخم أزمة النفط كل شق: توزيع الألم غير المتساوي يهدد بسلسلة فيتو، عكس سياسات، أو انهيار تماسك الاتحاد الأوروبي تماماً. إما أن تنحني ألمانيا — تليين مواقفها لتجنب الثورة الداخلية والانتخابات المبكرة — أو تصبح محوراً ينقسم عليه الكتلة.

يؤكد موقف إيران نموذج التعطيل. خلف مجتبي خامنئي دمج الانتقام بالوضوح الاستراتيجي. لا توجد مخرج بعد ضربات خلال مفاوضات نشطة؛ الثقة محطمة. تطالب طهران ليس بمجرد التهدئة بل بتصحيح نظامي — فلسطين منزوعة الاستعمار، تفكيك “الكيان الصهيوني” — شروط مستحيلة سياسياً لإدارة أمريكية ملتزمة بشبكات ونفوذ اللوبي المؤيد لإسرائيل. تفشل محاولات الانسحاب مع الحفاظ على الماء الوجه أمام هذا التطرف. تحضيرات النظام على مدى عقود — انتشار الصواريخ، تصلب الوكلاء، التحوط النقدي — تنفذ الآن بدقة، تحول القواعد الأمريكية من أصول إلى التزامات، والتحالفات إلى أعباء.

في حكمة الكتبان، كل ثورة تحمل بذور دمارها الخاص، والإمبراطوريات تسقط لأنها تنسى أن السلطة بدون شرعية هشة. كانت خيانة غزة ذلك النسيان متجسداً: غرور افتراض الإفلات من العقاب إلى الأبد. الثمن ليس عدالة مؤجلة مجردة؛ بل هو التفكك الجاري الآن — فوضى اقتصادية، إعادة ترتيب جيوسياسي، تشقق الواجهة التي كانت تدعي دعم عالم قائم على القواعد. الفاتورة مستحقة، والتاريخ، غير سامح، يقدمها كاملة.

ما يبرز ليس مجرد انهيار بل تحول: فجر متعدد الأقطاب حيث يفرض التعطيل العدالة، حيث يفسح إفلاس النظام القديم الأخلاقي المجال لفجر جديد، وإن كان مضطرباً. لم تعد التوابل تتدفق بشروط واشنطن. وفي هذه الحقيقة البسيطة يكمن بداية النهاية — وربما، أخيراً، بذور شيء أعدل.